صلوات فكر
فى محاريب الطبيعة !
للأستاذ عبد المنعم خلاف

أقباس من ظلمات القبح

إن القبح يتعرض لى لأصوّره فى صحفى ! أليس قانوناً مؤثراً فى حياة الأرض كما يؤثر الجمال ؟

إذاً فاستيقظى يا رءوس الشر والقبح التى طال نومها وصممتها فى دنياى ، وحدثينى حديثك . . ارقمى رأسك ، وجرجرى جسمك ، وارقصى أمامى رقصاتك فقد جاء دورك !

وما سُورُ الأهوال فى جحيم « دانتى » ، ولا خيال الطفولة عن السعالى والغيلان والجنّان فى كسف الظلام ، ولا أحلام اليقظة و « الكابوس » على صدر نائم ممتلئ واسع الخيال مرهف الحس بأشدّ تهويلاً وتخييلاً وافتناناً مما أراه الآن فى عالم القبح ... !

سيّالات متدافعة من ظلمات الأوهام ... وتهاويلُ مفزعة من شناعات الأشباح والأجسام ... وصور وأطياف من الوحل والحجر والقبح والصديد والغسلين والزقّوم وزفرات البراكين ورءوس الشياطين ، كل أولئك بعض ما تمر مواكبه فى خيالى الآن وأنا أستعرض ذلك العالم !

فسيرى أمامى يا جنود الشر التى تطمس نضارة الحياة وتنهش جسمها العبقرى وتشوه محياها الجميل ...

انسابى أيتها الزواحف السامة فى جنح الليل تحت أقدام الأحياء ، وروّعيها بفحيحك الهامس ولسعك القاتل ...

إنك نفوس فى أجسام حية أيضاً ، ولكنها نفوس تعيش مقبوحة مسلولة ملعونة مطاردة تجرجر أجسامها فى العفونات ، وترقب الحياة فى الأحياء العليا بعيون حديدة محمومة من الحقد ، وأنياب يغلى فيها السم المخزون فى رءوس كلها حُوَ بصلات أذى ... !

انعقى أيتها البوم والغربان على الأطلال والخرائب بصرخات تفزع منها طمأنينة النفس وتترك فيها أنغاماً جنازية قابضة تدير منها بهجة الحياة ...

عيشى أيتها الجعلان والخنفسان والدود فى الجيف والعفونات ، وعلى أشلاء الأحياء ، غائبة عن عالم النور والعطر والطهر ...

رُمّى أيتها السوس والبُرغوث والبعوض حقول النبات وأجسام الإنسان والحيوان ، وأعطِبى ثمراتها ، وامتصى دماءها ، واشربى ماءها ...

اخفقى أيتها الخفافيش البغيضة حائرةً محمومة فى غبش المساء بين الخرائب والأطلال فلم يبق لعيونك الخفشاء إلا رشلٌ من النور تسبحين فيه ، وتحومين على الوجوه بمسّ كريه

خوضى أيتها الأحياء الدنيئة فى الأوحال والمناقع والأدغال متربصة بالأذى على طريق الحياة ...

انبعثى أيتها العفونات والنتنات وازكمى الأنوف وأفسدى الأذواق والطعوم واخنقى عطور الأزهار وطيوب الأشجار

اضربى يا أكُفّ الظلام النجم بالأفول ، والصحة بالمرض ، والصبا بالشيخوخة والذبول

ثورى يا جبال النار واقذفى الحجارة المصهورة ، والمعادن الذائبة ، والشواظ الحارق ، وانشرى ذوائبك السود على أجواء الأحياء ...

* * *

وأنت أيتها القبائح الخفية فى قلوب الناس ! اطمسى جمال الحياة من داخل النفس كما تطمسه تلك من خارجها ...

انشرى العقوق والحقد والبغض والحسد والرياء والكبرياء وفرّقى بين الأحبّاء ...

كُلّى قلوب البشر وأكبادهم ، وأثيرى شهوات أحشائهم على حكومة العرش الأبيض الهادئ فى رءوسهم ...

أعيدى إلى أضراسهم وأنيابهم وأظفارهم سُعار اللحم والدم ، وأدْلِعى ألسنتهم بالسِّباب والعُهر والمهاترة والعُواء ...

اجعلى لبطونهم سعة البحر ، ولأطماعهم جوع الجحيم ...

تسلّى أيتها الجريمةُ رهيبةً مخيفةً للغيلة والغدر ، واختطفى حياة نفس آمنة شفاء لحزازات حقيرة وتلبيةً لصراخ الغرائز الوحشية . .

أمطرى الدمع والدمَ ، وأحرق شِغَاف القلوب ولفائف الصدور بالإثم ...

ازرعى قرون الشيطان أبيك العتيد فى كل مكان ، وضاعفى البذور ليتضاعف محصول الحصاد ...

ابرزى أيتها الحرب راقصة عاريةً باديةَ السَّوْآت خاضبة بالدماء ، حاجلةً على جماجم العباد وأنقاض البلاد ...

اختطفى زهرات الشباب من أحضان الأمهات والزوجات وضُمِّيهم إلى أحضانك الجافية القاسية عاشقين مخدوعين فانين ...

تربعى أيتها الجهالات والضلالات ، وانشرى سلطانك الغَشُوم المَقِيت على أفكار الحيوان المقدس !

* * *

افعلن كل أولئك يا جنود الشر والقبح وخُذْنَ مكانكن من مجال المعركة الأبدية بين الخير والشر وبين القبح والجمال فى هذه الدنيا لترى نفس ما تختاره لنفسها فى تلك الحياة الآتية الموعودة التى لا يكون فيها مزيج من الخير والشر والجمال والقبح فى مكان واحد . وإنما للخير والجمال وحدهما مكان ، وللشر والقبح وحدهما مكان ...

فإن كانت الدنيا مزيجاً من عالم الجنة « وهو المباهج واللذات والكمالات » وعالم النار « وهو المفاسد والآلام والنقائص » فإن الآخرة عالم جنة خالصة أو نار خالصة ...

وقد شاء الله للانسان أن يحيا حياته فى الدنيا ذات الصبغة المزدوجة ليتعرف إلى العالَمَيْن ويختار أحدهما . فهو إذاً المسئول عن عذابه بعالم القبح والشر الخالص فى أخراه ، إذ أنه هو الذى اختاره لنفسه فى دنياه ...

ومن العدالة ووضع الشىء فى موضعه ألا يدخل دار الجمال والخير إلا من مَرَنَ على الصفات الأساسية اللازمة لسكناها ومعاشرة قُطَّانها . .

ومعاذ الجمال أن يوضع البَشِر فى طاقات الريحان والزهر !

أجراس

فى سمعى من سير الزمان أجراس رنانة تدق بالليل والنهار ...

هى أجراس السكون والصمت اللذين يغمران العالَم الأعلى ...

لا يشغلنى عنها شاغل من ضجة مطارق البشر فى المصانع والمناجم ، أو جلجلة مدافعهم وقوارعهم فى الملاحم ، أو رنين صحافهم وأقداحهم فى المباهج والمناعم ، أو عويلهم وصراخهم فى المآتم ، أو عربدات مجّانهم فى الباذل والمآثم ...

وسهلٌ أن ألاقى أجراس الحركة بأذنى وحاستى المحدودة . أما أجراس الصمت والسكون فعلىَّ من ضجتها ضغط ثقيل أجتمع له بجميع حواسى وقوى نفسى !

الزمن

فى « الكرنك » قضيت فى الشتاء الماضى سويعات من الزمن !

والكرنك أعظم رحبة من رحبات الأطلال الفرعونية ؛ فهو أثر صناعي بشرى ليس من الطبيعة . ولكن الزمن أضفى عليه من سحره ما جعله فيما وراء الوعي منى كأنه محراب من محاريها . لفَرْط إيغاله فى القدم حتى ليتصل بهوا كير التاريخ الإنسانى المعلوم ويتاخم منطقة المجهول من ذلك التاريخ

والزمن تشتد الحاسية به فى هاته الرحاب حتى لكأنها مقبرته . نرى فيها مومياءه وجُثُوَّته تضحك لنا بفكين مقبوحتين وعينين مطموستين وشفتين مقلوستين ! وتفعرنا منه سَيَالاتٌ ورعشات حتى لنحُسُّه حين نحس هذه الأطلال التى طالما رأت صباحه ومساءه وصيفه وشتاءه وظلاله وأفياءه وظلماته وأضواءه فى يوم واحد مُعاد مكرور يُشيب الصغير ويُفنى الكبير ويُبلى الحجر ...

وبينى وبين الزمن علاقة سيئة ! فأنا لا أباليه ولا أحفل به كثيراً . فالحياة عندى منذ أدركتها يوم واحد لا أزال فى بهجة من تعاجيب صبحه وضحاه .. ! وقد أقبلت على حدود الأربعين ليس بينى وبينها إلا خطوات ثلاث . ومع ذلك فأنا من حساسيتى بالطبيعة وأذواق الحياة أسير فيها كبتدئ حياته أو كبتدئ رحلته ، يريد أن يتخفف من أثقال الزمن وأوقاره حتى يَعْبُر الأسواق بجسم خفيف ونظر طليق لماح يرى كل يوم جديداً ...

ومع هذا الشعور الذى يكاد يلازمنى قد أحسست حين دلفت إلى معبد الكرنك بين صفين من تلك الكباش الرابضة منذ خمسة آلاف سنة تستقبل الوافد فى وداعة وقوة ، أننى قادم على الزمن شيخاً هرماً راعشاً راهباً ترهَّب وتعبَّد فى الحجرات المظلمة والدهاليز المتداخلة والأقبية المسحورة التى تضمها أسوار هذا المعبد

وقد تركت لرفاقي حظ الاستماع إلى شرح « الدليل » وسرد التفاصيل ، وأقبلت على أوهامي أطلقها تلعب في ملاعب الأوهام القديمة التي كانت تعيش بها الإنسانية في تلك العصور السحيقة وتجسمها في التماثيل والتهاويل التي على عجزها وجمودها تثير خيال ناظريها واللائذين بها وتجعلهم يخلعون عليها ألواناً من حياتهم ويبادلونها أحاديث نفوسهم ...

* * *

أأطلال هذه أم ظلال ! وجنادل وصُفّاح أم أوهام وأشباح ! أهذه أعمدة المعبد الفارعات أم كاهناته الراقصات ! أنهاري هذا الطالع المشرق أم نهارهم ! أبقايا ظلام مخزون هذا الذي أراه جاثماً في حجرات أسرارهم أم ظلام جديد !

أهذه النسمات التي تمسح وجوهنا الآن خفقات رياح القرن العشرين بعد الميلاد ، أم رياح القرن الأربعين قبل الميلاد ! أنحن أرواح بائدة تجول في خلال هذه الأطلال أم نحن فلان وفلان وفلان من أبناء هذا الزمان ؟ أقصائد مرسلة هذه الأطلال أم حجارة ميتة جامدة !

ألا بقية حياة تحدثنا بصوت حي بين الرِّجام ؟ !

ألا تمست الأحلام وخابت الظنون ! فبين اليوم وأمس جدار بحجم دورة الشمس في عرض السماء ! فما بالك بما بيننا وبين هاتيك الأيام من دورات !

لماذا هذا التعلق بالبقاء يا أبناء الفناء ؟ لماذا تُولهّون قلوب الأحفاد أيها الأجداد ؟ لماذا تمقتون الإحساس بالزمن ؟ امضوا من غير أن تتركوا صُوًى وأعلاماً على الطريق ، حتى لا يُراع بعدكم أحد ، من طول المدى بين الأزل والأبد !

وإنه ليخبّل عقلك ويُشرّد لُبّك أن تبحث عن عُمّار هذه الهياكل الذين كانوا ! وأن تضع قدميك على مواطئ أقدامهم ، ويديك على ملامس أيديهم ، وعينيك على مواقع أنظارهم !

وإنك لتحس لذع السخرية يصبُّها الزمن على حسك ووعيك حين تحين منك التفاتة إلى وجه الشمس من خلال ظُلَل المعبد ؛ فتراها لا تزال كما رآها أجدادك جديدة الوجه عنيفة الشباب مصقولة المرآة قوية الضحوة ، وكأنها بنتُ يومك أنت وُلدت في صبحه وبُكّرته !

وإنك لتوشك من فرط التخييل أن تنادي الأفراد المغمورين المملوكين والسادة المالكين والكهنة حاضني الأسرار ليجيبك صدى صوتك مردوداً إليك باليأس والعجز بعد أن تتلقفه الزوايا والأبهاء وتعوى به التماثيل الصماء !

أكذلك أطبق ظلام الموت وظلام الأرض على أشخاص الأحياء فغابوا فيه ثم بقيت أعمالهم في محيط الجوامد الخوالد ؟ !

أكانوا أمواج ماء اضطرب به سطح الأرض فأرغوا وأزبدوا وهدروا ، حتى وصلوا إلى شاطئ الموت فانساحوا وفنوا بأصدافهم وقواقعهم وزَبَدهم وغثائهم !

أذهبوا وبقيت أحجارهم خالدة ؟

وهل يملك فانٍ أن يصنع خالداً ؟

لقد أحسها حسرةً (لَبيدُ) فأرسلها كلمة جاهلية ترجمت كل معاني إحساس النفس البشرية بالألم في كل عصر حين ترى أن نصيبها من الزمن أوكس حظاً من نصيب الجماد . إذ قال :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الديار بعدنا والمصانع !

عبد المنعم خلوف

وزارة المالية

تقبل إدارة التوريدات العمومية لغاية ظهر يوم الخميس الموافق ١٨ يناير سنة ١٩٤٥ عطاءات عن توريد ورق لازم المطبعة الأميرية لعام ٤٤ — ١٩٤٥ ويمكن الحصول على قائمة المناقصة وشروط العطاء من الإدارة المذكورة مقابل مائتي مليم .

٢٨١٤